الباب الثالث

الجهاد العملي في التاريخ الإسلامي

الفصل الأول : الجهاد في سير الأنبياء والرسل

الفصل الثاني : الجهاد في السيرة النبوية

الفصل الثالث : الجهاد في الخلافة الراشدة والسلف الصالح

الفصل الرابع : من أجل ماذا يجاهد المسلمون في الحاضر

الفصل الأول:

الجهـــاد
في سير الأنبياء والرسل

لم يبدأ الجهاد في الإسلام مع نبوة محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، وإنما وجد مع تاريخ الإسلام، و«المتتبع لسير الأولين في الديانات السابقة يجد أن الجهاد قد سار في ركابها وعاش معها متنقلاً من طور إلى آخر»[1]، وهو دعوة إلى الله تعالى مع كل الأنبياء والرسل، لقوله تعالى في سورة «المؤمنون» المكية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ ﴾، وتاريخ الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام مليء بالجهاد في سبيل الله إما من الأنبياء أنفسهم أو من أتباعهم، وقد اهتم القرآن الكريم بضرب المثل من جهاد الأنبياء والرسل كما ذكرته السور المكية في قصصها، بقصد العبرة كما قال تعالى في سورة يوسف المكية: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾.

والعبرة هي في صبرهم على ظلم أقوامهم لهم، وفي تحملهم للأذى والتعذيب والقتل، و«إن دراسة تاريخ الأنبياء والأمم السابقة تبين بوضوح طرق الدعوة في ظروفها المختلفة:

- عندما تكون مطاردة كما في دعوة إبراهيم عليه السلام.
- وحينما تكون ممكنة كما في دعوة داود وسليمان عليهما السلام.
- وحينما تكون في ظل حكومة غير مسلمة وغير مطاردة لها، كما في دعوة يوسف عليه السلام»[2].

---

(1) الجهاد في الإسلام، صالح اللحيدان، ص 21.

(2) انظر: تاريخ القضاعي (عيون المعارف وفنون أخبار الخلائف)، للإمام محمد بن سلامة القضاعي، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية، جامعة أم القرى، الطبعة الأولى، 1415هـ - 1995م، مقدمة المحقق الدكتور جميل عبد الله المصري، ص 10.

ومن أوائل هذه السور ما ذكرته سورة البروج التي سبق ذكرها في هذا الكتاب، ومنها قوله تعالى: ﴿ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ﴾، وفي قصص بني إسرائيل مع فرعون الكثير، ومنها قوله تعالى في سورة الأعراف اليثربية: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾.

وبخصوص أتباع المسيح عيسى بن مريم عليه السلام، قال تعالى في سورة آل عمران المدنية: ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ۖ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾.

إن هذه الآيات وغيرها تبين كيف كانت أحوال الأنبياء والرسل مع أقوامهم وكيف صبروا عليهم حتى أتاهم نصر الله، وأما القتال في سبيل الله فقد وجد في بني إسرائيل وقد قصه القرآن المدني في مناسبته الموضوعية والتاريخية، عند تأسيس المشروعية للقتال في سبيل الله في الدعوة الإسلامية الأخيرة، حتى يعلم المسلمون أنهم ليسوا بدعاً من أتباع الأنبياء والرسل في الجهاد والقتال في سبيل الله، ومن هذه العبر القرآنية قول الله تعالى عن بني إسرائيل مع موسى عليه السلام في سورة البقرة المدنية: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ ﴾، أي إنَّ الله كتب على المؤمنين منهم أن يقتلوا المفسدين، لأن في ذلك خيراً لهم، وتوبة عند الله تعالى.

وفي قصة داود عليه السلام قال تعالى في سورة البقرة المدنية: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ

أُخْرِجْنَا مِن دِيَـٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَـٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَـٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَيَّدْنَـٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ وَلَـٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ ﴾.

هذه الآيات الكريمة من سورة البقرة المدنية تبين أن القتال في سبيل الله وجد في بني إسرائيل، وفي عهد أنبيائهم والصالحين منهم، وأن أسباب القتال في تاريخ الأنبياء والرسل واحدة، وهي وجود فئة باغية تفسد في الأرض وتصد عن سبيل الله من آمن، ولذلك شرع الله أولاً التدافع، كما ذكره في الآية (251) من سورة البقرة المدنية، ومن المهم جداً أن نتفكر في ذكر التدافع في هذه الآيات الكريمة وهي تقص على المسلمين المؤمنين ما كان في الأمم السابقة، حتى يعتبروا بها وهم من أوائل أولي الألباب إن لم تكن حصراً

فيهم، وقد قرن الله تبارك وتعالى تشريع التدافع بالفضل، أي إنَّ تشريع التدافع هو من فضل الله تبارك وتعالى على الناس وعلى المؤمنين، أي على العلماء الذين يصدقون بالحق، فلولا التدافع لم تقم للعلم مكانة ولم يقم للحق وزن ولم يقم للعدل دولة، ولولا تشريع القتال في سبيل الله لما وجد على الأرض إلا قتال في سبيل الطاغوت، فوجب على الأنبياء والرسل والصديقين والشهداء والصالحين القتال في سبيل الله، لأنهم أحق الناس بنصرة الحق وإقامة العدل بين الناس.

الفصل الثاني:

الجهاد
في السيرة النبوية

في السيرة النبوية الشريفة تتجلى معاني الجهاد في الإسلام في أدق صورة وأجلها وأبينها، وحيث إن المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي للاجتهاد متقاربان، فإن الحياة النبوية كلها سيرة جهد وجهاد، ورحمة وسلام وعدالة، والتزام بالعهود والمواثيق مع من له هدنة مع المسلمين[1]، لأن البعثة النبوية كلها مجاهدة، وقد اعتاد كل من يكتب عن السير والمغازي أن يهتم بالمرحلة المدنية دون المرحلة المكية أو بقليل من الاهتمام للمرحلة المكية، ولكن الدراسات الحديثة أخذت المرحلة المكية بمزيد من الاهتمام، وبالأخص بتفسيرها السياسي[2].

قال ابن القيم عن سيرة النبي عليه الصلاة والسلام: «أول ما أوحى إليه ربه تبارك وتعالى: أن يقرأ باسم ربه الذي خلق، وذلك أول نبوته، فأمره أن يقرأ في نفسه ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ، ثم أنزل عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾، فنبأه بقوله: (اقرأ)، وأرسله بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾، ثم أمره أن ينذر عشيرته الأقربين، ثم أنذر قومه، ثم أنذر من حولهم من العرب، ثم أنذر العرب قاطبة، ثم أنذر العالمين.

فأقام بضع عشرة سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية ويؤمر بالكف والصبر والصفح، ثم أذن له في الهجرة، وأذن له في القتال، ثم أمره أن يقاتل من قاتله

---

(1) الجهاد في الإسلام، صالح اللحيدان، دار اللواء، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية، 1398هـ ـ 1978م، ص 131.

(2) انظر: أصول الفكر السياسي في القرآن المكي، الدكتور التيجاني عبد القادر حامد، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الأولى، 1416هـ ـ 1995م، ص 53. وانظر: الجهاد في الإسلام، الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، ص 74.

ويكف عمن اعتزله ولم يقاتله، ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله لله، ثم كان الكفار معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام:

الأول: أهل صلح وهدنة.

الثاني: وأهل حرب.

الثالث: وأهل ذمة.

فأمر بأن يتم لأهل العهد والصلح عهدهم، وأن يوفي لهم به ما استقاموا على العهد فإن خاف منهم خيانة نبذ إليهم عهدهم ولم يقاتلهم، حتى يعلمهم بنقض العهد، وأمر أن يقاتل من نقض عهده، ولما نزلت (سورة براءة) نزلت ببيان حكم هذه الأقسام كلها، فأمره فيها أن يقاتل عدوه من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية أو يدخلوا في الإسلام، وأمره فيها بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم، فجاهد الكفار بالسيف والسنان والمنافقين بالحجة واللسان.

وأمره فيها بالبراءة من عهود الكفار ونبذ عهودهم إليهم، وجعل أهل العهد في ذلك ثلاثة أقسام:

الأول: قسماً أمره بقتالهم وهم الذين نقضوا عهده ولم يستقيموا له فحاربهم وظهر عليهم.

الثاني: وقسماً لهم عهد مؤقت لم ينقضوه ولم يظاهروا عليه فأمره أن يتم لهم عهدهم إلى مدتهم.

الثالث: وقسماً لم يكن لهم عهد ولم يحاربوه أو كان لهم عهد مطلق فأمر أن يؤجلهم أربعة أشهر فإذا انسلخت قاتلهم، وهي الأشهر الأربعة المذكورة في قوله: ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة: 2]، وهي الحرم المذكورة في قوله: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: 5]، فالحرم هاهنا: هي أشهر التسيير، أولها يوم الأذان وهو اليوم العاشر من ذي الحجة وهو يوم الحج الأكبر الذي وقع فيه التأذين، بذلك، وآخرها العاشر من ربيع الآخر.

وليست هي الأربعة المذكورة في قوله: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [التوبة: 36]، فإن تلك واحد فرد وثلاثة سرد: رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم.

ولم يسير المشركين في هذه الأربعة، فإن هذا لا يمكن لأنها غير متوالية، وهو إنما أجلهم أربعة أشهر ثم أمره بعد انسلاخها أن يقاتلهم، فقتل الناقض لعهده وأجل من لا عهد له أو له عهد مطلق أربعة أشهر، وأمره أن يتم للموفي بعهده عهده إلى مدته، فأسلم هؤلاء كلهم ولم يقيموا على كفرهم إلى مدتهم وضرب على أهل الذمة الجزية.

فاستقر أمر الكفار معه بعد نزول براءة على ثلاثة أقسام: محاربين له وأهل عهد وأهل ذمة ثم آلت حال أهل العهد والصلح إلى الإسلام فصاروا معه قسمين: محاربين وأهل ذمة والمحاربون له خائفون منه فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام: مسلم مؤمن به ومسالم له آمن وخائف محارب.

وأما سيرته في المنافقين فإنه أمر أن يقبل منهم علانيتهم ويكل سرائرهم إلى الله وأن يجاهدهم بالعلم والحجة وأمره أن يعرض عنهم ويغلظ عليهم وأن يبلغ بالقول البليغ إلى نفوسهم ونهاه أن يصلي عليهم وأن يقوم على قبورهم وأخبر أنه إن استغفر لهم فلن يغفر الله لهم فهذه سيرته في أعدائه من الكفار والمنافقين»[1].

إن المتتبع لأحداث السيرة النبوية لا يجد أمراً يخالف قول الله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾، ففي كل يوم من سيرته عليه الصلاة والسلام موقف رحمة للعالمين، للعالمين وليس للناس فقط، فضلا عن أن يكون رحمة للمسلمين والمؤمنين فقط، للعالمين من الإنس والجن، الذين اهتدوا بهديه واتبعوا سنته عليه الصلاة والسلام، وأكثر ما يحتج به المتحمسون للقتال من أحاديثه عليه الصلاة والسلام ما رواه الشيخان عن ابن عمر رضي الله عنهما: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله)[2].

---

(1) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم الجوزية، 2/ 207.

(2) الجامع الصحيح، الإمام البخاري، كتاب الإيمان، رقم (25)، 1/ 14. وصحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الإيمان، رقم (126)، 1/ 152.

وقد درسنا من قبل معنى كلمة القتال لغة واصطلاحاً، وأن القتال لا يفيد إرادة القتل فضلاً عن إحداثه، وإنما إرادة الإلزام باتِّباع دستور الدولة الإسلامية، وهذا معلوم من أسباب ورود هذا الحديث، فهو حديث مدني بلا خلاف، إذ لا قتال قبل الهجرة إلى المدينة، وهو بعد غزوة الأحزاب لقوله عليه الصلاة والسلام: (الآن نغزوهم ولا يغزونا)، كما سبق بيانه في دراسة أوضاع الدولة الإسلامية بعد الهجرة وحتى شوال من العام الخامس للهجرة، فإذا كان ذلك كذلك، فهل قاتل الرسول عليه الصلاة والسلام أحداً من الناس ليلزمه قول لا إله إلا الله وان محمداً رسول الله، وأن يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة، لم يثبت ذلك في السيرة النبوية، ولم يدعِ ذلك أحد من المؤرخين المسلمين ولا من غير المسلمين، فلم تثبت في تاريخ النبوة حادثة واحدة رفع فيها السيف على رأس إنسان، إما أن ينطق الشهادتين أو يقتل.

وهذا المعنى معارض لنصوص القرآن في حرية الإيمان كما سبق بيانه في آية سورة الكهف المكية: من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، وفي سورة البقرة المدنية: لا إكراه في الدين، قد تبين الرشد من الغي، فهذه المعاني واضحة لكل إنسان مسلم وغير مسلم، فكيف نوفق بين معاني هذه الآيات ومعاني هذا الحديث، إلا أن يكون المقصود هو أنه لن يسمح لقوة في العالم أن تمنع الناس من شهادة الحق: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقامة الحق في العبادة: إقامة الصلاة، والتعاون بين الأغنياء والفقراء: إيتاء الزكاة، أي انه سيقاتل كل من يقاتله على بقاء المسلمين أمة واحدة من دون الناس، أي مجتمعاً نورانياً، ودولة عادلة خيرة.

وهذا شبيه بقوله عليه الصلاة والسلام لعمه أبي طالب لما جاءته دولة المشركين بزعامة أشرافها تعرض عليه الملك والمال والنساء، فكان جوابه: والله لن أترك هذا الأمر حتى يتمه الله أو أهلكَ دونه، أو كما قال عليه الصلاة والسلام، فهو بهذا المعنى قائم على هذا الأمر بمكة صبراً وجهاداً، وقائم على هذا الأمر في المدينة قتالاً وجهاداً أيضاً.

ومن هديه عليه الصلاة والسلام في الحض على الجهاد الأحاديث النبوية التالية:

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: [سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ أَيُّ الأَعْمَالِ أَفْضَلُ قَالَ إِيمَانٌ بِاللهِ وَرَسُولِهِ قِيلَ ثُمَّ مَاذَا قَالَ جِهَادٌ فِي سَبِيلِ اللهِ قِيلَ ثُمَّ مَاذَا قَالَ حَجٌّ مَبْرُورٌ]، متفق عليه.

وعن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: [قِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُؤْمِنٌ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ] الحديث، متفق عليه.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: [قِيلَ لِلنَّبِيِّ ﷺ مَا يَعْدِلُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ لا تَسْتَطِيعُونَهُ قَالَ فَأَعَادُوا عَلَيْهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاثًا كُلُّ ذَلِكَ يَقُولُ لا تَسْتَطِيعُونَهُ وَقَالَ فِي الثَّالِثَةِ مَثَلُ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ الصَّائِمِ الْقَائِمِ الْقَانِتِ بِآيَاتِ اللهِ لا يَفْتُرُ مِنْ صِيَامٍ وَلا صَلاةٍ حَتَّى يَرْجِعَ الْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى]، متفق عليه، وهذا لفظ مسلم.

وعنه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: [قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ] الحديث، رواه البخاري.

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: [يَا أَبَا سَعِيدٍ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا وَبِالإِسْلامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ فَعَجِبَ لَهَا أَبُو سَعِيدٍ فَقَالَ أَعِدْهَا عَلَيَّ يَا رَسُولَ اللهِ فَفَعَلَ ثُمَّ قَالَ وَأُخْرَى يُرْفَعُ بِهَا الْعَبْدُ مِائَةَ دَرَجَةٍ فِي الْجَنَّةِ مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ قَالَ وَمَا هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ]، رواه مسلم.

وعن عَبْدُاللهِ بْنُ أَبِي أَوْفَى رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: [وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلالِ السُّيُوفِ]، متفق عليه.

إن هذا الحث على الجهاد وبيان فضله من النبي عليه الصلاة والسلام كان محكوماً لشريعة ربانية عادلة، وهدي نبوي قويم، فكان من وصايا النبي عليه الصلاة السلام لأمراء البعوث وسرايا الجهاد ما رواه الإمام مسلم في صحيحه قال: ح وحدثني عبد الله بن هاشم (واللفظ له). حدثني عبد الرحمن (يعني ابن مهدي). حدثنا سفيان عن علقمة بن مرثد، عن سليمان بن بريدة، عن أبيه. قال:

كان رسول الله ﷺ، إذا أمر أميراً على جيش أو سرية، أوصاه خاصةً بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً. ثم قال:

ـ اغزوا باسم الله. وفي سبيل الله.

ـ قاتلوا من كفر بالله.

ـ اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً.

ـ وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال (أو خلال). فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم. ثم ادعهم إلى الإسلام. فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم. ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين. وأخبرهم أنهم، إن فعلوا ذلك، فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين. فإن أبوا أن يتحولوا منها، فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين. يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين. ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء. إلا أن يجاهدوا مع المسلمين. فإن هم أبوا فسلهم الجزية. فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم. فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم.

ـ وإذا حاصرت أهل حصن، فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه. فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه. ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك. فإنكم، أن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم، أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله. وإذا حاصرت أهل حصن، فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله، فلا تنزلهم على حكم الله. ولكن أنزلهم على حكمك. فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا)[1].

(1) الجامع الصحيح، الإمام مسلم، باب الجهاد، 3 – (1731).

الفصل الثالث:
الجهاد في الخلافة الراشدة والسلف الصالح

إذا تفكرنا في خطاب أبي بكر الصديق خليفة رسول الله ﷺ، في خطبته الأولى بعد توليته الخلافة من جموع المسلمين والمؤمنين وبيعتهم له، علمنا أن هذه الأمة التي تنتخب هذا الرجل يصدق فيها قول الله تعالى في سورة آل عمران: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾، ولعلمنا أن هذه القيادة الإسلامية الرشيدة ما كانت تعرف من الإسلام إلا الوحدانية لله تبارك وتعالى، واتِّباع سنة نبيه عليه الصلاة والسلام، وأنها خير أمة أخرجت للناس وليس للمسلمين والمؤمنين فقط، وما ذلك إلا لأنها تأمر الناس بالمعروف وتنهاهم عن المنكر، وتؤمن بالله الذي بيده ملكوت كل شيء وهو على كل شيء قدير.

قال أبو بكر الصديق يوم مبايعته من المسلمين والمؤمنين على إمامتهم: (أيها الناس، إني وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، القوي ضعيف عندي حتى آخذ منه الحق، والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت فلا طاعة لي عليكم)[1].

هذا الخطاب السياسي الأول الذي توجه به أبو بكر الصديق إلى الناس وليس للمسلمين والمؤمنين فقط، وهو يدرك معنى أيها الناس التي بدأ بها خطابه، وثانيها أنه واحد منهم لا يتميز عليهم بشيء، وهذه المرة الأولى في التاريخ الإنساني التي ينتخب الناس باختيارهم رئيساً لهم، فلم تعرف البشرية ولا علومها السياسية انتخاباً مباشراً لمن

(1) السيرة النبوية، ابن هشام، 4/ 340، تاريخ الأمم والملوك، الطبري، 3/ 203، البداية والنهاية، ابن كثير، 5/ 248.

يحكم الناس وهو يعلن أنه واحدٌ منهم، فقد عرفت قريش قبل الإسلام مبدأ الشرافة في الحكم، وعرف الفرس أكاسرتَهم، وعرف الروم قياصرتهم، وعرف الحبشة ملوكهم، وعرف غيرهم أدعياء القداسة والكهانة وغيرها، ولكن الناس حتى يوم السقيفة لم يعرفوا ولم يسمعوا بأحد من الناس يوم مبايعته خليفة وإماماً يخرج إلى السوق يتكسب قوت أهله كما كانت عادته من قبل، وفي خطابه الأول يطلب الإعانة والتقويم في الحكم، وأطيعوني ما أطعت الله فيكم، وهو يعلم أن من يخاطبهم يعلمون من حقوقهم ما يعلم هو، وأنه وإياهم في طاعة الله ورسوله.

من كان هذا حاله وخطابه ومن كانوا هؤلاء المخاطبين، هل يخرجون على الناس بالحرب، أم بالهداية والخير والسلام، فإذا علمنا أن فتوحات الخلافة الراشدة توجهت نحو بلاد العرب في الجزيرة والشام والعراق ومصر بالدرجة الأولى، فإن ذلك يعني أنها توجهت نحو بلادها التي تقع تحت سيطرة خارجية، إما للفرس أو للروم أو غيرها، أي إنها خرجت لتحرير هذه البلاد من الاحتلال الأجنبي، أو من الاستعمار في مصطلحات العصر الحديث.

إن « كل معارك الفتوحات الإسلامية في القرن الأول الهجري كانت ضد جيوش القوى الاستعمارية التي قهرت الشرق، سياسياً وحضارياً ودينياً وثقافياً، لأكثر من عشرة قرون، ضد جيوش القيصرية الرومانية.. والكسروية الفارسية.. ولم تدر معركة واحدة بين جيوش الإسلام وبين أهل تلك البلاد المفتوحة.. بل لقد وقف أهل تلك البلاد ـ وهم على دياناتهم القديمة ـ مع جيوش الفتح الإسلامي، وشاركوا في هذه الفتوحات.. ورأوا فيها تحريراً لأوطانهم من القهر الاستعماري الروماني.. وتحريراً لضمائرهم وعقائدهم من القهر الديني والحضاري.. بل رأوها إنقاذاً إلهياً لهم ـ على يد المسلمين ـ وعقاباً إلهياً للمستبدين الرومان.

وبهذه الحقيقة شهد الأسقف «يوحنا النقيوس» وهو شاهد عيان على الفتح الإسلامي لمصر فقال: (إن الله الذي يصون الحق، لم يهمل العالم، وحكم على الظالمين، ولم يرحمهم لجرأتهم عليه، وردهم إلى يد الإسماعيليين (المسلمين العرب) ثم نهض المسلمون وحازوا كل

مدينة مصر، وبأمر الله الذي يأخذ أرواح حكامهم، مرض «هرقل» ومات، وكان عمرو بن العاص يقوى كل يوم في عمله، ويأخذ الضرائب التي حددها، ولم يأخذ شيئاً من مال الكنائس، ولم يرتكب شيئاً ما، سلباً أو نهباً، وحافظ على الكنائس طوال الأيام)[1].

وهذا يعني أن الفتوحات الإسلامية في الخلافة الراشدة لم تختلف في مفهومها ورسالتها عن أهداف الجهاد في الإسلام، وهم الذين تدربوا العسكرية الأولى في العهد النبوي الشريف، وفيه تعلموا مفهوم الجهاد في سبيل الله، ورسالته وهدايته وأنواعه وأهدافه وضوابطه، وقف الصديق رضي الله عنه يوصي جنده المتوجهين إلى القتال: (أيها الناس: أوصيكم بعشر فاحفظوها عني: لا تخونوا ولا تغلوا، ولا تغدروا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً، ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة، **وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له**، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام، فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها، وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب، فاخفقوهم بالسيف خفقاً، اندفعوا باسم الله، أفناكم الله بالطعن والطاعون)[2].

وللإمام ابن كثير كتاب قيم في الحديث عن حكمة الجهاد في الخلافة الراشدة والسلف الصالح، ذكر فيه أهمية الجهاد في الإسلام، والكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية في فضل الجهاد في سبيل الله، ومراحل الضعف التي أعقبت خيرة القرون إلى حدود الخمس مائة هجرية[3]، بعدها أخذ الضعف يكبر ويزداد، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

---

(1) الإسلام في عيون غربية، الدكتور محمد عمارة، ص 16.

(2) تاريخ الأمم والملوك، الإمام الطبري، 4/ 46. وانظر: المغني، لابن قدامة، 8/ 452.

(3) الاجتهاد في طلب الجهاد، عماد الدين ابن كثير، تحقيق الدكتور عبد الله عبد الرحيم عسيلان، دار اللواء، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثالثة، 1405هـ ـ 1985م، ص89. وانظر: تهذيب كتاب مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق، الدمياطي، ص 332.

الفصل الرابع:
من أجل ماذا يجاهد المسلمون في الحاضر

الجهاد في الإسلام ليس وظيفة تاريخية انتهى حكمها وزمانها، وليس وظيفة تقليدية ولا عادة تراثية تؤدى دون علم، وإنما هو وظيفة شرعية لها مفهومها وشروطها وأحكامها وأهدافها، تبين لنا بعضها في الفصول السابقة، فالقضية الأساسية في موضوع الجهاد في الإسلام هو أن يعلم المسلمون لماذا فرض الله الجهاد على الأنبياء والرسل وأتباعهم من المسلمين، وأن يتفكروا لماذا كتب الله القتال على عباده المؤمنين وهو كره لهم، وإضافة لذلك من المهم أن يعلم غير المسلمين لماذا لا يتخلى المسلمون عن الجهاد، ومن أجل ماذا يجاهدون، حتى تكون صورة الجهاد في الإسلام واضحة للعالم أجمع، فكلمة الجهاد دخلت القاموس اللغوي العالمي، وأصبحت كلمة مستعملة بلفظها العربي في وسائل الإعلام العالمية، وهذا يفرض على علماء المسلمين ومفكريهم ومثقفيهم أن يشرحوا للناس وللعالم أجمع وبكل اللغات العالمية، أن يشرحوا لهم مفهوم الجهاد في الإسلام، ومن أجل ماذا يجاهد المسلمون في الحاضر.

إن الجهاد في الإسلام ليس لصالح المسلمين وحدهم وإنما هو خدمة للبشرية جمعاء، وفي صالح الناس كافة دون استثناء، وقد ثبت ذلك للعالم أجمع في العصر الحديث، فإن من أسباب انهيار الدول الشيوعية الإلحادية التي قامت في القرن العشرين الماضي باسم «حلف وارسو» كان جهاد المسلمين الفكري، عندما فندوا مزاعم النظريات الشيوعية، ونقدوا الاشتراكية الماركسية نقداً معرفياً وعلمياً قبل غيرهم، وعندما جاهدوا ضدها جهاداً اجتماعياً فحالوا دون امتداد الإلحاد في مجتمعاتهم ودولهم التي يطلق عليها «دول الشرق الأوسط»، وجاهدوا ضده اقتصادياً عندما أفشلوا نظرية صراع الطبقات في بلادهم العربية والإسلامية، وجاهدوا ضده سياسياً عندما رفضوا مشاركته في الأحلاف السياسية الشريرة، وكان آخر أنواع الجهاد الإسلامي ضد الشيوعية هو الجهاد

العسكري، وهو عندما احتل الإتحاد السوفيتي دولة إسلامية وفرض نظمه الإلحادية على شعبها المسلم.

لقد كان الجهاد العسكري ضد الشيوعية آخر أنواع الجهاد، ولم يقم به المسلمون إلا عندما احتلت أراضيهم عدواناً وظلماً، ولكنهم قبل ذلك جاهدوا ضده فكرياً وأخلاقياً ودينياً واجتماعياً واقتصادياً وسياسياً، وقد حصد نتائج جهادهم ضد الشيوعية العالم أجمع، بما فيه شعوب الاتحاد السوفييتي السابق، التي سارعت إلى إعلان استقلالها وتحررها من الأنظمة الشيوعية المستبدة، واستفاد منه العالم الغربي الذي انفرد في قيادة العالم دون أن يشكر للمسلمين دورهم الإيجابي في خلاص البشرية من مظالم الشيوعية وفسادها في الأرض.

إن الجهاد في الإسلام طريق نجاة وخلاص للبشرية جمعاء، إذا فهم الناس من أجل ماذا يجاهد المسلمون في الحاضر، وقبل تفصيل هذه الفكرة، نود التذكير بالمبادئ الإنسانية الأساسية التي يدعو الإسلام إليها الناس جميعاً، والتي ندعو شباب المسلمين إلى تذكرها قبل الشروع في أي عمل يدخل في أبواب الجهاد في الإسلام ومنها:

1 ـ إن البشر جميعاً أبناء أسرة واحدة، وإنَّهم متساوون في الخِلقة والحقوق الإنسانية، كما قال تعالى في سورة النساء المدنية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾، دون تمييز بينهم بسبب اللون أو الجنس أو العرق أو اللغة أو الجغرافيا أو غيرها.

2 ـ إن الشخصية الإنسانية في الإسلام حرة ومستقلّة ومكرمة في سيادتها على الأرض، كما قال الله تعالى في سورة البقرة المدنية: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾، ومعنى الخليفة: الإنسان الحر في سلطته، أي إنَّ الله تبارك وتعالى أنعم على الإنسان بالحرية أولاً وطالبه بالإيمان ثانياً، أما تكريمها ففي قول الله تعالى من سورة الإسراء المكية: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾.

3 ـ إن إنزال الكتب من الله تعالى وإرسال الرسل هو للهداية، كما قال تعالى في سورة الأعراف المكية: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾، فالتقوى والعمل الصالح معيار الإيمان الحق، والإيمان الحق معيار الانتفاع من الحرية بصورة صحيحة، وإرسال الأنبياء والرسل وإنزال الكتب الغاية منه الهداية وليس إلغاء الحرية الإنسانية، ولا إكراه الناس على الأخذ بدين معين، فالحرية الدينية محفوظة ومقررة ومكفولة في الإسلام، كما قال تعالى في سورة البقرة المدنية: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾، فالإيمان لا يلغي الحرية، والحرية ليست ضد الإيمان.

4 ـ إن الاختلاف بين الناس وانقسامهم إلى أمم وقبائل وشعوب أمر حتمي، والدين الحق لا يدعو الناس إلى الاختلاف والفرقة وإنما إلى التعاون والاتفاق والتعارف، وسبب الاختلاف والفرقة بين الناس هو مخالفتهم للعلم أولاً، وبغيهم على بعضهم بعضاً ثانياً، كما قال تعالى في سورة هود: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾، وقوله تعالى في سورة البقرة المدنية: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ ﴾، وقد سبق بيان بعض معاني هذه الآية الكريمة في التمهيد.

5 ـ إن الإسلام يحرم العدوان والحرب، ويأمر بالسلم فقال تعالى في سورة البقرة المدنية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ ﴾، والإسلام لا يشرع للقتال بين الناس إلا بمبررات قانونية وحجج شرعية، سواء كانت في الحفاظ على الحقوق: الفكرية أو الأخلاقية أو الدينية

أو الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية، والتي سبق شرحها في بيان أنواع الإيمان، ويشرع القتال في منع الجريمة والمجرمين كما سبق بيانه في أوجه الكفر، فمبررات الجهاد والقتال في الإسلام ليست غيبية، ولا دينية بالمعنى السلبي لكلمة الدين عند من يجهلون معناها الشرعي، وإنما هي أسباب واقعية وعقلية وعلمية وإصلاحية.

6 ـ لا يوجد في الإسلام حروب مقدسة، ولا يتبنى الإسلام الحروب الدينية ولا يدعو لها، وإنما يدعو المسلمين إلى الجهاد للحفاظ على حقوق الناس كافة، وللحفاظ على المصالح العليا الداخلية للمسلمين، ويدعوهم إلى القتال للحفاظ على المصالح العليا للمسلمين ضد الاعتداءات الخارجية.

هذه الأسس مهمة من أجل أن يعرف المسلمون لماذا يجاهدون في الحاضر، ومن أجل أن يعرف الناس لماذا يقاتل المسلمون بقوة وشجاعة كل من يعتدي عليهم أو يفسد في مجتمعاتهم أو يحتل بلادهم، فهم لا يجاهدون من أجل إرغام الناس على دخول الإسلام بالقوة والإكراه، ولا لأن الناس يختلفون معهم في الأديان والمعتقدات الشخصية، ولا تكبراً ولا غطرسة في الأرض، ولا من أجل فرض الإسلام نظاماً عالمياً وحيداً بالقوة العسكرية، فالإسلام احترم طرق عيش البشر من غير العرب ومن غير المسلمين، وبالأخص من أهل الكتاب، والتاريخ النبوي شاهد على ذلك في الدستور الإسلامي الأول في التاريخ، فقد اعترف باليهود أمة مع المؤمنين في الدولة الإسلامية الأولى في صحيفة المدينة المنورة.

وأما في الحاضر فلا يقاتل المسلمون ضد الشعوب الأخرى من أجل تغيير أنماط عيشهم الخاصة بهم ـ وإن كانوا يحملون الرغبة في هداية الناس جميعاً ـ لأن أنماط العيش والسلوك الاجتماعي لا تتغير إلا بالقناعة العقلية والإرادة الحرة، كما قال تعالى في سورة الرعد البثربية: ﴿...إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ...﴿١١﴾﴾، وقوله تعالى في سورة الأنفال المدنية: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾.

والحقائق تقول إن المسلمين في الحاضر في حالة دفاع عن حقوقهم الطبيعية والفكرية والأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وهم اليوم في حالة من تنامي

عداء غير المسلمين لهم، كما أقره البيان الختامي لمنظمة المؤتمر الإسلامي الأخير في دورته الاستثنائية الثالثة للمؤتمر المنعقد في مكة المكرمة بين 5ـ6 ذي العقدة 1426هـ الموافق 7ـ8 كانون الأول 2005م، الذي جاء فيه: (أكد المؤتمر ضرورة العمل الجماعي على إبراز حقيقة الإسلام وقيمه السامية والتصدي لظاهرة كراهية الإسلام وتشويه صورته وقيمه وتدنيس الأماكن الإسلامية والعمل الفعال مع الدول والمؤسسات والمنظمات الإقليمية والدولية وحثها على تجريم هذه الظاهرة باعتبارها شكلاً من أشكال العنصرية.

أعرب المؤتمر عن قلقه إزاء تنامي الكراهية ضد الإسلام والمسلمين في العالم ونددد بالإساءة إلى صورة نبي الإسلام محمد ﷺ في وسائل إعلام بعض البلدان وأكد مسؤولية جميع الحكومات على ضمان الاحترام الكامل لجميع الأديان والرموز الدينية وعدم جواز استغلال حرية التعبير ذريعة للإساءة إلى الأديان).

إن هذا الإقرار من أكبر تجمع رسمي إسلامي دولي يؤكد على أن للمسلمين حقوقاً يحق لهم الحفاظ عليها، وأنه من الواجب عليهم الدفاع عن حقوقهم الداخلية الخاصة، في حقهم في العيش على أرضهم أحراراً في معتقداتهم ودينهم ورموزهم الدينية وأنماط عيشهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وهذا يوجب على الدول المعتدية على الشعوب والدول الإسلامية أن تعيد حساباتها، وتنظر بعين العدل للشعوب والدول الإسلامية في حقها في العيش بحرية وأمان، وحقها في الاختلاف الفكري والثقافي والديني مع الأمم الأخرى، بما فيها الدول العظمى في العالم، وحقها في تقرير طبيعة إصلاحها الداخلي وأولوياته، وطرق معالجتها لمشاكلها الداخلية، بما فيها طرق التعامل مع قوى المعارضة الداخلية، فهذه حقوق أساسية للحفاظ على هوية أي شعب أو دولة، وإلا فإن المسلمين مضطرون للقتال دفاعاً عن حقوقهم التي ينتهكها المعتدون.

إن الإسلام ضد الحرب بالمعنى اللغوي والجاهلي، وهو ضد الحرب بالمعنى العسكري العصري، الذي يعطي الدول العظمى حق التدخل في شؤون الآخرين، وتغيير الأنظمة الحاكمة فيها، سواء كانت أنظمة سياسية أو اجتماعية أو فكرية، لأن مستقبل الشعوب تقرره المعارف والعقول والعلوم، عن طريق الحوار والتفاهم بين الأفراد أو

المجتمعات أو الدول، ولا تقرره المدافع ولا الطائرات ولا الصواريخ، ولا معنى للحرب العادلة مهما كانت حججها، وبالأخص إذا كانت من دول تسعى إلى الهيمنة الدولية وليس إلى القيادة العالمية العادلة، فالحرب في حالة الدول المهيمنة لا تكون إلا عدوانية واستغلالية وظالمة، ولا تحصد إلا العار والندامة لأهلها وأبنائها المدنيين والعسكريين على حد سواء، فضلا عن الخسائر المادية والمعنوية الكبيرة.

إن المسلمين في الحاضر في غنى تام عن الحروب التي تسعى إلى فرض الإسلام على الشعوب الأخرى، لأن ذلك لو حصل ـ وهو ما لم يحصل ولن يحصل ـ فلن تكون هذه الشعوب مسلمة على الحقيقة، وسوف ترتد عن دينها في أول فرصة سانحة لها، وهذا ما لم يحصل في التاريخ، فالشعوب التي نافست العرب على الحكم في التاريخ، لم ترتد عن الإسلام يوم أصبحت في مناصب السلطة والملك والخلافة، والمسلمون في الحاضر يدركون أن الوعي الإنساني في صالح الدين الحق، وفي صالح الإسلام، ولذا فهم لا يخربون بيوتهم بأيديهم ولا ينقضون غزلهم من بعد قوة أنكاثاً، ولا يوافقون من يشوهون الجهاد بأعمال لا تعود على الإسلام والمسلمين إلا بالخسائر في نظر غالبية المسلمين قبل غيرهم.

إن معيار اعتبار الأعمال من الجهاد أو إخراجها منه هو في مدى موافقتها للقيم الإسلامية الإنسانية التي سبق بيانها أولاً، ثم موافقة نتائجها للأعمال الصالحة التي أمر الإسلام بها ثانياً، فالإسلام دعا إلى الإيمان وأمر بالعمل الصالح، وما يخرج عن القيم الإسلامية والعمل الصالح ليس من الجهاد الإسلامي في شيء، ومنها الأعمال التي يصفها قلة من المسلمين بالجهاد، والتي تقع في بعض عواصم العالم وتلحق الأذى بالأبرياء والمدنيين المسلمين وغير المسلمين، فكيف يمكن اعتبار هذه الأعمال من الجهاد الإسلامي المعاصر، وهي في ظاهرها لا تتفق مع القيم الإسلامية الإيمانية، ولا تحقق للمسلمين أعمالاً صالحة، إلا الرغبة بالانتقام إن كانت من المسلمين فعلاً.

ومن الناحية السياسية تعتبر أعمالاً غير حكيمة، فهي لا تعيد للمسلمين حقاً ولا تلحق بالمستهدفين أثراً، بل وتعود على الإسلام والمسلمين بالأذى والضرر الكبير، فكيف يمكن تقبل مثل هذه الأعمال في دائرة الجهاد الإسلامي الحكيم!

ومن حق عقلاء المسلمين أن يقولوا: لا مصلحة للإسلام والمسلمين من ضرب مركز تجاري أو محطة قطارات في هذه العاصمة الأوروبية أو الأمريكية أو العربية أو غيرها، ونسبة هذه الأعمال إلى المسلمين يشكك في القدرات السياسية للمخططين لها أولاً، ويشكك في القدرات العلمية للمنفذين لها ثانياً، ويشكك في المستفيدين منها ثالثاً، ويشكك في المستغلين لها رابعاً، وعلى فرض أن المنفذين لها أو المتبنين لها ـ إعلامياً ـ هم من المسلمين، فهم من المسلمين الذين يحركهم الحماس وحب الانتقام بغض النظر عن النتائج.

وبعد عدد من هذه الأعمال المتناثرة، أدرك الكثير من المسلمين أثرها السلبي على الإسلام والمسلمين، فقد ألحقت الكثير من الأذى والضرر بالإسلام والمسلمين قبل غيرهم من شعوب العالم، مما يتطلب من القائمين عليها ـ إن كانوا من المسلمين المؤمنين حقاً ـ أن يعيدوا حساباتهم، وأن لا ينسبوا هذه الأعمال إلى الإسلام وإنما إلى أنفسهم، فإنهم بخطئهم وخطرهم على أنفسهم يتحملون مسؤولية ذلك، ما لم يلحقوا الأذى بغيرهم من الأبرياء المسلمين وغير المسلمين، على أن يعلموا أن من يلحق الأذى والضرر بالمسلمين والأبرياء من الناس لا يحقق الأهداف الشرعية من الجهاد في سبيل الله.

وإن على علماء المسلمين ومفكريهم ومثقفيهم أن يقودوا المجتمعات الإسلامية إلى رفض الأعمال التي لا تعود على الإسلام والمسلمين والأبرياء إلا بالأذى والضرر، وبالأخص تحذير شباب المسلمين من التورط في أعمال لا تنفع المسلمين بشيء، فلا يحق لمسلم أو حركة إسلامية ـ وإن كانوا من الأتقياء المخلصين ـ أن يقودوا المسلمين كافة إلى معارك لا نفع لهم فيها، ولا حول لهم فيها ولا قوة، فطالما أن هذه الأعمال تلحق بالمسلمين الأذى والضرر قبل غيرهم، لا بد من التصدي لها فكرياً أولاً، واجتماعياً ثانياً، وسياسياً ثالثاً، منبهين على ضرورة المحافظة على الترتيب السابق.

إن التصدي الفكري يستوجب بيان حقيقة الإسلام، ودور الجهاد فيه في السلم والحرب، وهذا ما يمكن أن تقوم به الحوارات الإسلامية الداخلية، عن طريق الحوارات الفكرية المفتوحة ونشر الكتب النافعة وغيرها، والتصدي الاجتماعي هو الذي يقوم به

العلماء الذين لهم ولاية علمية رسمية في المسجد أو الجامعة أو وسائل الإعلام، فالعلماء هم أولو أمر المجتمع المسلم والحريصون على سلامته وأمنه، والتصدي السياسي هو الذي تقوم به أجهزة الدولة الأمنية في المحافظة على الأمن العام، وسلامة الناس وأعراضهم وممتلكاتهم، ومقاضاة كل متورط في عمل إجرامي، عملاً بكتاب الله وسنة رسول الله الأمين، وبالأخص في مواجهة التفجيرات التي تستهدف أرواح الأبرياء من المسلمين أو المستأمنين أو من غيرهم، فأي جهاد صادق يستهدف إنساناً بريئاً أو بلداً آمناً!!

والضرر الآخر الذي ينسب إلى الجهاد الإسلامي خطأً هي الفتاوى التي تصدر من بعض المسلمين منذرين ومحذرين ومهددين للدول العظمى باسم الإسلام والمسلمين ـ إن لم يفعلوا كذا وكذا فسيكون كذا ـ وهم لا يقدرون على الظهور العلني أمام الناس، فهلا نظروا في أحوال أمتهم وما تقوى عليه، وهلا نظروا في الجهاد والسير النبوية في كتب الحديث الصحيحة، والتي بينا من قبل أنها تقوم على فهم معادلات التوازن الدولي، وعلى إدراك مقومات السياسة الدولية والعوامل المؤثرة فيها، فأحداث وأحاديث الجهاد والسير النبوية مدرسة عظمى في تقدير موازين القوى والسياسة الدولية وإمكانياتها، وفي ضرورة تحقيق مصالح المسلمين في الأرض دون إفساد ولا معصية.

إن الفتاوى المعاصرة مطالبة أن تكون واضحة وصادرة عن معرفة وعلم بما تفتي فيه، وإنْ تكون مدركة أنها تخاطب الناس جميعاً وليس العربي والمسلم فقط، فلا يكفي وصف المحتلين المعتدين بالمصطلحات الدينية، مثل وصفهم بالكفار أو المشركين أو غيرها، والتي قد لا يفهم معناها إلا العربي والمسلم ذو اللسان العربي والثقافة الإسلامية، ولا يكفي استعمال مصطلحات الكفر والشرك في وصف غير المسلمين دون بيان أسباب استعمالها، فلا بد من تحقيق المعنى الذي أراده الشارع في القرآن الكريم وفي السنة النبوية، ومثال ذلك: وصف الرؤساء الذين يعلنون العداء للإسلام والمسلمين أمام شعوبهم بالمجرمين والظلمة والمفسدين في الأرض، وليس مجرد رميهم بالكفر، لأن فهم الناس لمصطلح الكفر محصور بالمعنى التراثي ولم يبق على حقيقته اللغوية والشرعية، فالأولى وصف كل مفسد بفساده وجرمه.

كما أن الإعلامي المسلم والصحفي والكاتب والمذيع والمحرر والمراسل وأمثالهم ينبغي عليهم إن يتعاملوا مع الأحداث من وجهة نظر علمية وموضوعية وأمينة من جهة، ومن وجهة نظر عربية وإسلامية تدرك ما تتعرض لهُ أمتهم من مؤامرات ومكائد دولية، وعدم تلقي الخبر المحلي من مصادر خارجية فقط، وضرورة التعامل مع الأحداث كما لو كان الإعلامي في موقف قضائي، فلا يطلق حكماً مسبقاً بصفته الإعلامية، بل لا بد أن تصدر الأحكام الجهات المختصة بعد بينة وشهادة ومعرفة وعلم وتحقيق عادل.

إن المسلمين لا يجاهدون إلا دفاعاً عن حقوقهم ومصالحهم، ولا يقاتلون إلا لرد الظلم والعدوان عن أنفسهم وديارهم ومقدساتهم، وعلماء المسلمين مطالبون اليوم قبل غيرهم أنْ يشرحوا هذه القيم ويبينوها للعالم أجمع، وبالأخص الشعوب الأوروبية والأمريكية المتحضرة، التي ترى نفسها تحترم حقوق الإنسان، وتؤمن بالمساواة بين البشر، وتدعو إلى الحرية والسلام، والرغبة في المصالحة العالمية، فالشعوب شركاء في هذه القيم، ولا يجوز أن تترك قادتها السياسيين يعبثون في قدرات بلدانهم ولو كانوا منتخبين.

وإن مهمة المصالحة بين الشعوب تتطلب رفع الظلم عن المظلوم وإخراج الاحتلال عن المحتلين، ورفع الظلم عن المظلومين، وإعادة الحقوق إلى أهلها، إن التعاون بين المفكرين والمثقفين بين كل هذه الشعوب هو الخطوة الأولى التي تقرب وجهات النظر بين الدول والقيادات، وهي الأكثر أماناً ونجاعة ونجاحاً، إن مسؤولية إعلام العالم لماذا يجاهد المسلمون في الحاضر هي مسؤولية فكرية وثقافية قبل كل شيء، فالمظالم الداخلية والخارجية تفرض على كل الناس ـ بما فيهم المسلمون ـ الدفاع عن حقوقهم، والفارق بين الإسلام وغيره من المعتقدات، هو أن الإسلام وعد من يدافع عن حقه الإنساني في الدنيا، وعده بالنصر في الدنيا والجنة في الآخرة، ومن يؤمن بهذا المعتقد، ولا يخضع لظلم داخلي ولا يستسلم لعدوان خارجي، حري بأن يحترم من كل الشعوب المتحضرة ومن كل الأمم العالمية الحرة.